الاسلام كعامل فى المدنية*

للاستاذ أحمد أمين

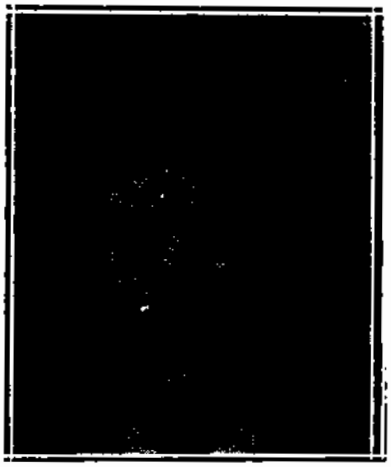

نســـل أهم تراث الاسلام وأثره فى المدنية أمران : (الأول) العقيدة الاسلامية ، لأنى أرى أن كل ما نشأ عن الاسلام من فتح وعلم وادارة وفن وغيرها أثر من آثارها ، فالعربى قبيل الاســلام كان هو العربى بعيده ، فى جسمه وجوهر عقله ومعدنه ، ولم يجعله يتجه الى الفتح ويرى نفسه جديراً بأن يقف فى المستوى الذى تقف فيه أرقى الأمم فى عصره — وهما الفرس والروم — بل يرى نفسه أرقى منهما ، وأجدر بأن يحكمهما ويوجههما وجهة خيراً من وجهتهما ويدخل التعـديل على مدنيتهما — الا عقيدته ؛ فهى — وحـدها — الشىء الجديد فى حيـاة العربى المسلم . لم يأت الاسلام فى أول دعوته بنظريات هندسية ، ولم يخترع آلات حربيـة ، ولا فنوناً جديدة ، ولا نوعاً من الادارة جديداً ، لأن هذه كلها أمور ثانوية بجانب العقيدة ؛ فالعقيدة اذا صلحت أصلحت كل فاسد ، ونشأ عنها كل أسباب التقدم ولو كان صاحبها فقيراً جاهلاً ، حتى ولو كان فى بلد جدب وأرض قفر ، ولو لم ينشأ فى مدنية ولو لم يرث حضارة . والعقيدة اذا فسدت أضاعت الثروة الموروثة ولم ينفع معها علم ولم يفد غنى ، كلا ولا تنفع أرض خصبة ولا مدنيـة فخمة ، ففيلة الفرس لم تثبت أمام بعير البدوى ، ولا الدروع المضاعفة الرومانيـة استطاعت أن تصمد أمام نبال العربى وقوسه الساذجة ، لأن بعير البدوى كان يحمل على ظهره قلباً مؤمناً ، وفيل الفارسى كان يحمل فؤادا هواء ؛ والقوس العربيـة كانت تصدر عن عقيدة صحيحة قوية ملهبة ، ودروع الرومانى كانت تتضمن قلباً لا عقيدة فيه ، كل همه شهوة ينالها ومتاع زائل يأمل أن يلتذ به ، فان فقـد العربى حياته فى القتال فلا بأس فانمـا يعجل ذلك قربه من الله ، واذا فقـد الفارسى أو الرومانى نفسه فيالها من خسارة ، فقد حرم الخمر وحرم النساء وحرم متع الحيـاة ؛ فاذا قاتل العربى قدم حياته فحفظت حياته ، واذا قاتل الآخر قدم عدده وادخر حياته فخسر عدده وحياته . لم يتغير شىء فى حياة العربى عند ظهور الاسلام إلا عقيدته ، وكل شىء تغير غيرها فبسببها . وقد كنت أود أن أقتصر على الكلام فيهـا لولا أن هناك ناحية أخرى تهمنا كأثر قوى فى بنـاء المدنية وهى « أثر الثقافة الاسلامية فى المدنية » ، فهى من جهة أكبر أثر للعقيدة ، ومن جهـة أخرى أقوى مركز ترتـكز عليه المدنية . لهذا سنحصر قولنا فى هاتين الناحيتين وفيهما الغناء

__العقيدة الاسلامية__ — كان العرب فى جاهليتهم يعبدون الأصنام ، قد اتخذت كل قبيلة إلهاً من صنم أو وثن ، وقدمت اليه القرابين وجعلته الآمر الناهى ، وهو طور تـكاد تـكون الأمم كلها قد مرت عليـه وان اختلفت أسماء أصنامها باختلاف بيئاتها ؛ ذلك لأن فى طبيعة الناس الايمـان بقوة فوق قوتهم تدفع عنهم الشر وتجلب لهم الخير ، وتحيى وتميت ، وتخلق وتفنى ؛ واذا كان العقل قاصراً ركز هذه القوة فى شىء من المـادة خلع عليه هـذه الصفات ، فأحياناً يكون صنما ، وأحياناً يكون الشمس والنجوم ، وأحياناً يكون شجراً ، وأحياناً يكون حيواناً ، وأحياناً يكون نهراً أو بحراً ، فـكل هذه الـكوائن عبدت عند الأمم المختلفة ، لأنها أحست أن فى أعماق نفسها عقيدة بقوة فوق قواها . تساوت الأمم فى هذا ، ولـكنها اختلفت فى الشكل الذى تجسد فيه هذه القوة فتعبده ، بحسب قوتها العقلية والخيالية ومواضعها الجغرافية وبيئتها الاجتماعية

الشعور الحار العميق . فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الـكلامية التى هى كل بهرجهم الأدبى الأجوف ، فان كل هذا الضجيج العقلى لن يصل خبره إلى القلب الذى لا يفتر لحظة عن التسبيح رغماً عنهم بالعقيدة التى ركبت عليها حياته النابضة ...

توفيق الحكيم

وكانت هـذه هى الحالة الساذجة للعبادة عند الأمم يعترفون بإله أو آلهة ، ويشكلونها فى شىء محسوس يقدمون لها صنوف تعظيم والتمجيد — فكرة حق ولكنها اتخذت مظاهر خرافية كالطفلة فى غريزتها الأمومة ، وفى طبيعتها الاشراف على تنظيم الحياة البيتية ، فهى تتخذ لها لعباً من عرائس تجعلها أبناءها بناتها وتمنحها عطفها ، وتنفذ عليها أوامرها اجابة لداعى الغريزة الكامنة وارهاصاً لما يكون منها بعد نموها

وأحياناً يحاول أن يتخلص من المادة فيعبد أرواحاً جناً أو ملائكة أو نحو ذلك ، ولكن سرعان ما ينتكس ثانية فيسبغ عليها أوصاف المادة فيجعلها ذكوراً وإناثاً ، ويجعل لها أجنحة تطير بها ، ويجعل لها قروناً وذيولاً لأنه لم يرق حتى يستطيع أن يتحرر من عبادة المادة بتاتاً

كذلك كان العرب بل كان أكثرهم فى حالة منحطة من عبادة المادة ، يعبدون الحجر لا النجوم ولا الأرواح ، ويأتمرون بأمرها فى زعمهم فى اقامة ورحيل ، واقدام واحجام ، وزواج وطلاق

وعبادة الأصنام كائنة ما كانت — تشل حركة العقل ، وتضعف قوة النفس ، وتحط الحياة الاجتماعية ، وتجعلها حياة خرافية وضيعة . مثل هـذه العقيدة تعوق العلم ، لأن العلم لا يلائمها ، وتعوق التفكير الصحيح لأنه ليس من طبيعتها ، وتعوق التقدم الاجتماعى لأنه أساس اطلاق الفكر من قيوده ، والفكر مشلول بعبادة الأصنام

ومن أجل هذا كان أهم ما أتت به سلسلة الأنبياء محاربة هذه العقيدة ، وتخليص الفكر من قيوده التى قيدته بها العقيدة فى الحجر والشجر ، والنجوم والبحار والأنهار ؛ وكان نجاحهم فى أول الأمر قليلا قليلا ، لأنه لم يكن يقوى على احتمال تجريد الاله عن المادة الا القليل من الناس ، وحتى فى العصور الحديثة لا تزال النزعة الى مادية الاله تتسرب فى أشكال مختلفة ، مع رقى العقل البشرى ونموه ونضوجه

وقد بدأت هذه الدعوة الى التجديد فى الأمم السامية من عهد ابراهيم ، واستمرت بين الظهور والخفاء ، وكلما تقدم الناس كانوا أكثر لها استعدادا وأقرب قبولا ، حتى أتى محمد (ص) فدعا دعوته الجريئة الصريحة الى كسر الأصنام وتحطيم الأوثان وتخليص العقيدة من كل شرك ، وتجريد الله عن كل مادية ؛ وكان شعار عقيدته « لا إله إلا الله » ، ومدار عقيدته « ليس كمثله شىء » ؛ فالأصنام ليست تصلح لشىء الا للعاول ، والنجوم هو الذى خلقها ونظم حركاتها ، والبحار والأنهار هو الذى خلقها وأجرى ماءها ، والملائكة هو الذى خلقهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، لا شىء يشاركه فى ألوهيته من مادة أو روح — هو حقيقة واضحة معقولة لا فى شكل — غيبت عن العقول حقيقته ، وظهرت لهم صفاته ، فهو الخالق لكل هذه الظواهر ، وهو الذى يسيرها ، وهو غرضها الأسمى ؛ هو وحدة لا تعدد فيها بأى حال — تنزه عن المادة وتنزه عن الشريك

سلك القرآن فى الدعوة الى الايمان مسلكا خاصا ، فبعد أن أبان للانسان أن الله خالق كل شىء ، وأنه رب العالمين ، طلب اليه أن ينظر الى كل شىء فى العالم من صغير وكبير ، فسيرى فيه مظهراً من مظاهر الألوهية ، ودليلا على عظمة الله وقدرته لم ينهج القرآن منهج الفلاسفة فى دوران العقل حول نفسه ليستخرج منها نظريات مجردة ، ومقدمات ونتائج منطقية ، انما طلب أن تمتزج النفس بالعالم ، وأن ينفذ العقل الى رب العالم عن طريق العالم ، لأن هذه الطريقة أكثر إحياء للشعور ، ومبعثاً لحياة القلوب ؛ والايمان ليس يعتمد على العقل وحده ، بل هو يعتمد على القلب أكثر من اعتماده على العقل . من أجل هذا طلب القرآن النظر الى كل شىء فى العالم من الذباب والنحل والعنكبوت ، الى الفيل والجمل ، الى البحر والنهر ، الى السماء والأرض ، الى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، الى الشمس والقمر ، الى الليل والنهار . والقرآن مملوء بالآيات التى تصل الانسان بالعالم ، وتصل العالم بالقلب ، وتبعث حرارة الايمان بالله ، وتملأ القلب حياة وحماسة . وهذا هو الذى ملأ صدر الصدر الأول من المسلمين بالعقيدة ، وجعلهم يبيعون أنفسهم فى سبيل الله عن سخاء . وهذا بعينه هو الذى شجع المسلمين على البحث العلمى ، فقد اتجهوا الى العالم يستدلون به على خالقه فدفعهم ذلك الى العالم يتعرفون طبيعته وقوانينه ، وهذا هو العلم . لم يطلب اليهم الاسلام أن يعيشوا فى صوامع يديرون طاحونة العقل على

هواء ؛ ب اليهم أن يتصلوا بالعالم يدرسونه وينظرون فيه ـنفهم ، فكان ذلك داعية للعلم والمدنية معاً . لم يتطلب ـلام من صاحبه أن يعيش عيشة روحية مطلقة مجردة عن المـادة ، بل طلب اليه أن يمزج الحياة الروحية بالحياة المـادية ، وأن يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، وأن يتزوج ويصلي ، وأن ينعم بالحياة فلا يحرم على نفسه زينة الدنيا وطيبات الرزق كما ينعم بالنظر وبالتفكير في ملكوت الله ، وبعبارة أخرى لم يتطلب الاسلام من الانسان أن يكون ملكا ، وانما طلب اليه أن يكون انساناً كاملا ، يعيش وفق ما خلق ، فقد خلق جسما وروحا ، فلجسمه عليه حق ، ولروحه عليه حق ؛ فلا عجب بعدُ أن رأينا المسلم يساهم في بناء المدنية لأنها واجبـه ، وفي بناء الروحية لأنها مطلبه

لم ينح الاسلام منحى العلم ، يقرر القوانين جافة جامدة كما تفعل العلوم الرياضية والطبيعية ، وكما تفعل الميتافيزيقا اليونانية فهذا هو العلم ؛ ولكنه سلك مسلكا سماه « الحكمة » وقال : « ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الألباب » ؛ وما الفرق بين العلم والحكمة ؟ العلم هو هذا النوع من المعرفة التي تأتي من طريق الحواس وما تألف منها ؛ فاذا نظمت هذه المعارف ووضعت كل طائفة منها في مجموعة سميت علماً . أما الحكمة فمزج الروح والنفس بالعالم ، والعلم يغذي العقل وحده ؛ أما الحكمة فتغذي العقل والمشاعر ، وهـذه المشاعر هي التي عبر عنها الدين بالقلب والفؤاد . اذا كان العلم ينظر الى الانسان فيقسمه الى أجناس ، والى أمم ، والى ذكور وأناث ، فالحكمة تنظر الى الانسانية في الانسان والى الانسانية التي من ورائها الله يسيرها وينظمها ويمنحها الوجود وعدها روح منه . واذا كان العـلم يقسم النبات الى فصائل ، ويميز اختصاص كل فصيلة ، فالحكمة ترى في اختلاف أنواع النبات دليلا على القدرة الالهية . وهكذا بينا في العـلم تمد الطبيعة رباطا بينها وبين العقل ، تمد الحكمة رباطين أولها وأولاهما بينها وبين القلب ، وثانيهما بينها وبين العقل

ومن أجل هذا عنى القرآن بمظاهر الاختلاف بين القوانين الطبيعية أكثر مما عنى بتقرير القوانين الطبيعية الجزئيـة ، فهو يلفت النظر الى الانسان ، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم كان من المضغة عظام ، ثم كسا العظام لحما ، ثم كان من ذلك انسان

ولفت النظر الى اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، واسترعى النظر الى السحاب يسير باذن الله ، ثم يمطر ماء فتكون منه زروع وجنات يأكل منها الانسان والأنعام ، والى الانسان واختلاف ألوانه واختلاف ألسنته ، والى حركة المـاء في البحار والأنهار وتلاقيهما . وهكذا عُنِى القرآن بهذه المناظر المتغيرة ، وبهذه الحركة الدائمة لأنها أمس بالشعور وأقرب الى الحكمة وأدل على المحرك والخالق والمدبر ، فكانت بذلك مبعث ايمـان صادق حار لا يفتر

وقد غفل علماء الكلام من المسلمين عن الفرق بين العلم والحكمة ، وبين الفلسفة والدين ، وبين منهج القرآن ومنهج اليونان ، فحولوا — وعلى رأسهم المعتزلة — الدين من القلب الى العقل البحت ، وألفوا العقائد في شكل قضايا منطقية ، فتحجر الدين ، وانقلب جسما جامدا لا روح فيـهُ ، فخمدت حرارته ، وضعفت شعلته ، وقل نوره وضياؤه

بهذه العقيدة التي ألممنا بها نقل الاسلام العرب من أفق خرافي ضيق كسم الخياط ينحصر في تقديس الحجر والرجوع اليه في أهم الأحداث ، الى أفق فسيح لا حد لسعته ، يطالع فيه جميع المخلوقات في الأرض والسماء ، ويسبح بعقله وشعوره فيها ، ويمتزج بها ، بل هو لا يقف عند ذلك ، ويتعداه الى إله مجرد عن المـادة ، ومنزه عن شبه المـادة ، يحكم العالم ويسيطر عليه ، وينظمه ويسيره ، وهو وحده لا شريك له رب العالمين

وضع الاسـلام في يد العرب الذين كانوا يدينون بالأصنام معاول يكسرون بها الأصنام ، وهم اذ كانوا يكسرونها حسياً كانوا يعلنون بعلمهم أنهم تحرروا من رق الخرافة ، وسموا عن تقديس حجر ، وارتفعوا بتفكيرهم وشعورهم الى ما فوق المادة ، واتصلوا بإله الكون يستمدون منه القوة ، ونظروا من طيارة الى من حولهم من الناس يرثون لحالهم ، اذ رأوهم بائسين ، كما كانوا هم بالأمس ، من فرس مجوس يعبدون ناراً ، وما النار إلا مخلوق ضعيف تشبه في ضعتها الأحجار التي كانوا يعبدونها أيام جاهليتهم ، ومن رومان

را وراءهم دينهم الصحيح وأخذوا يعبدون شهواتهم فعبدوا ، وعبدوا النساء وعبدوا المال وعبدوا الجاه ، وما كل ذلك أصنام كأصنامهم التي حطموها بالأمس ، وما هي إلا ضرب ر من ضروب النار التي يعبدها المجوس تشب بين جوانحهم . إلاء الفرس وهؤلاء الرومان الذين كانوا بالأمس القريب ، المثل على للعرب ، والذين كانوا يرون في أعماق نفوسهم أنهم أنفسهم يد ، وأن الفرس والروم سادتهم ، وأنهم سوقة والفرس والروم وكهم ، وأنهم أذلة والفرس والروم أعزة ، وأنهم فقراء وأمل أمل منهم أن ينال من متاجرته مع الفرس والروم شيئاً من يأتهم ومما تناثر من أيديهم ؛ هؤلاء الفرس والروم أصبحوا في نظر العربي المسلم أسرى عقائد فاسدة ، وأسرى شهوات وضيعة ، بأن مالهم وجاههم وعدتهم وزينتهم لا تساوي شيئاً بجانب صحة عقيدتهم هم ، لقد كانوا ينظرون اليهم من غواصة فيحسدونهم على استنشاق الهواء على ظهر الأرض ، فأصبحوا ينظرون اليهم من طيارة عالية جداً فيرونهم حشرات حقيرة تتقاتل على متع دنيئة ، ويرونهم المثل الأدنى للانسانية . وقد كانوا المثل الأعلى ، وأنهم أحق بالعطف عليهم والأخذ بيدهم ، وقد كانوا من قبل يستجدونهم ويستذلون لهم ويخطبون ودهم . لم يقلب هذا الوضع عند العرب الا العقيدة ، وكفى بها ثورة : ثورة في العقل وفي القلب وفي الخلق جعلتهم كأنهم خلق آخر

هذه العقيدة بما أضاءت وبما بعثت من حكمة جعلتهم فوق العلم . ان شئت فانظر الى عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة ، وسعد ابن أبي وقاص وأمثالهم — ماذا كانت ثقافتهم العلمية بالمعنى الذي نفهمه الآن ؟ كانت لا شيء ، أو كانت ضعيفة كل الضعف ، فليسوا على علم واسع بقوانين الحساب والهندسة ، ولا بالجغرافية ، ولا بشيء من فروع العلم ، ولكن أضاءت الحكمة أذهانهم وقلوبهم ففاقت العلم ؛ والا فكيف استطاع عمر بن الخطاب — مثلاً — أن يدير هو وأعوانه مملكة الفرس والروم ، وقد تلقنا في الحضارة شأواً بعيداً ، يعرف أهلها الجغرافية معرفة واسعة ، ويؤسسون المملكة على نظم ادارية وحربية دقيقة ، وعندهم علم وأدب وفن . لو عهد بأقليم من أقاليم الفرس والروم الى عمر في الجاهلية لحار في إدارته وارتبك ، ولساسه كما يرعى الشاء والابل ، ولكنه الاسلام وما بعث من حكمة غير نظره الى الأشياء وجعله ينفذ ببصيرته الى نظم الفرس والروم فيدرك منها الصالح وغير الصالح ، ويعدل في ادارتها وشؤونها الاجتماعية تعديلاً لا يستطيعه العالم الماهر الذي تنتجه ، حتى حضارة اليوم . فهو يغير من نظام الضرائب ، وتوزيع الأراضي ، وتدوين الدواوين ، ويستطيع وهو في مكة أن يرسم خطة السير لحكومة تسوس العراق ومدن الفرس ، كما تسوس الشام ومدن الروم ! انها احدى العجائب الكبرى أن يصل بدوي الى ذلك ، وعهدنا بالبدوي الهمجي يخرب ولا يعمر ، واذا غزا وانتصر فكل مطمعه في الغنيمة . فما بال عمر وأمثال عمر يدخل التحسينات على الحضارة ، ويقترح فيما يزيد العمران ، ويبث في الحضارة القديمة روح العدل والاحسان ؟ لا شيء غير العقيدة الاسلامية محصت نفسه ، وطهرت قلبه ، وجعلت نظره ينفذ الى بواطن الأمور ، يعدل على الذين لا يرون الا الظواهر ، ولا يهمهم إلا بهرجة الدنيا ، والزخرف الظاهري

فان نحن عددنا العقيدة الاسلامية — بالشرح القليل الذي شرحنا — أثمن ما قدمه الاسلام الى المدنية لم نكن مبالغين

هذه العقيدة لا تقر بعظمة إلا عظمة الله ، ولا تقر بتقديس ملك ولا بامتياز لرجال دين ، ولا تعترف بوساطة أحد بين الانسان وربه ، ولا بأي نوع من أنواع الأرستقراطية : لا أرستقراطية المال ولا أرستقراطية العلم ولا أرستقراطية رجال الدين . كل الناس سواء . الناس من تراب وإلى التراب يعودون . ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . وخير الناس أنفعهم للناس

أحمد أمين

(البقية في العدد القادم)

ظهر حديثاً كتاب :

نقد كتاب حياة محمد

للأستاذ عبد الله القصيمي النجدي

فيه بيان الأغلاط العلمية والدينية الواقعة في كتاب هيكل : (حياة محمد)

ويباع بمكاتب القاهرة وثمنه عشرون مليما